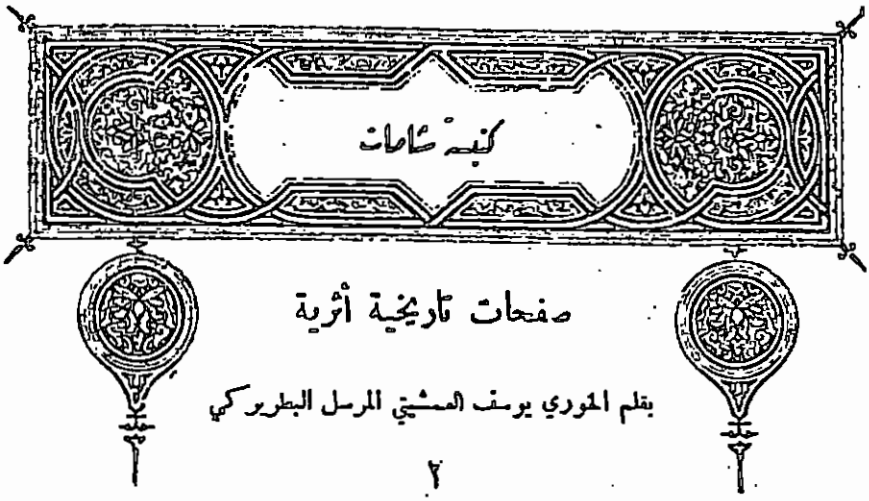

صفحات تاريخية أثرية

بقلم الخوري يوسف العشي المرسل البطريركي

٢

٥ كنيستها (تابع)

قد كان للسطوة الدينية فيما مضى نفوذها وتأثيرها في الشعوب مما دفعها الى تشييد المباني الفخمة ، واقامة الهياكل العظيمة ، اجلالاً للقوة العلوية التي كانوا يدعونها الهاً وربًا . وعليه كان القوم شديد التحمس في امور دينه . ولا يبعد اذا كان هذا المعبد شيّد لاكرام ابنة جوبيتر المدعوة شيا كغيره من المعابد . ولم يكن يختلف بناؤه او هندسته عن الهياكل القديمة التي اكتشفت في هذه البلاد ، كما تشير الى ذلك آثار البناء القديم والاعمدة الضخمة التي كان يستعملها الاقدمون من يونانيين وفينيقيين ومصريين ورومانيين واشوريين في اهم مشاريعهم ، وعلى الخصوص هياكل الآلهة كآثار رومة ، وانينة ، وبعلبك ، وجرش ، وعمان ، وتدمر ، ودير القلعة ، وبيلوس الخ .

اما امر تحويله الى معبد مسيحي فلا يمكننا البتّ في تعيين زمنه . انما نقول على سبيل الاستدلال ببعض مستندات تاريخية ان تحويله يرتقي الى عهد انتشار صناعة البناء البيزنطية وطريقة الفسيفساء . لكن الزلازل والحروب التي توالت على هذه البلاد هدمت الكنيسة ولم تدع شيئاً على كيانه ، ولكنها تجددت فيما يلوح لي في عهد البطريرك دانيال الاول الشاماتي ، الذي كرّسها هو عينه كما يأتي بيان ذلك . وقد اقتصر بناؤوها على سوقين فقط ، واتخذوا كثيراً من قطع الاعمدة وجعلوها في اساسات البناء ، عملاً بعادة ذلك العصر في البنيان .

ومما شاهدناه ايضاً في هذه الكنيسة لجهة الشرق عمداً في اساس الحنيّة ، تمتدّ اليها الايدي من داخل ومن خارج بواسطة نوافذ صغيرة ضيقة ، كان الاقدمون يتخذونها مستودعاً لاموالهم وما علت قيمته بحفر ثقرة في العمود وسدّها بحجر من جنسه سداً محكماً يسد الشبهة ، ورسم علامة دقيقة لاكتشاف المخبأ . وقد شاهدت نظير ذلك في اماكن عديدة بين الخرائب ورودوم الابنية القديمة .

لم تكن هذه العادة مستحدثة . فاننا نقرأ في التاريخ المقدس ان هيكل اورشليم كان مستودع الشعب العبراني . والمسيحيون القدماء ، اقتداء بهؤلاء ، كانوا يودعون ما عزّ لديهم لدى الأساقفة او في الهياكل . وفي التاريخ ان الشعب الوثني كان يودع امواله في الهياكل او عند سدنتها ، كما روى ذلك المؤرخ هارودیان (Herodian) .

ولهذه الكنيسة رواق امامها كباقي الكنائس القديمة في لبنان ، ككنيسة كفرحي ، ومعاد ، ومسرح ، وتولا الخ .

اما آثار الاساسات التي ظهرت بعد الحفر في جانب الكنيسة فليس من المستغرب اذا كانت هذه اساسات المعبد الاصلي ، او اساس معبد آخر ملاصق للكنيسة ، كما قال الاب لامنس .

اما البئر التي وجدت في اثناء الحفر فقد كانت داخل الهيكل القديم ، وهي على هندسة وشكل بئر يعقوب في شكيم « نابلس » ، متسعة القعر ، بعيدة الغور . اما الآن فهي خارج الكنيسة لجهة الشرق .

اما ما وجده الفعلة في اثناء الحفر داخل الكنيسة ، غير الاعمدة الضخمة ، فهو صليبٌ من نحاس بيزنطي الشكل ذو طبقتين لايداع ذخيرة من خشبة الصليب المقدس . عليه من جهة صورة المصلوب في الوسط ، وعن اليمين واليسار صور الانجيليين الاربعة ، متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا . ومن الجهة الاخرى صورة السيدة العذراء في الوسط ، وعن يمينها ويسارها صور اربعة من الانبياء . (الرسم ٢)

وقد عثروا ايضاً على قطعة فسيفساء سلمت من ايدي التخريب (الرسم ٣) .

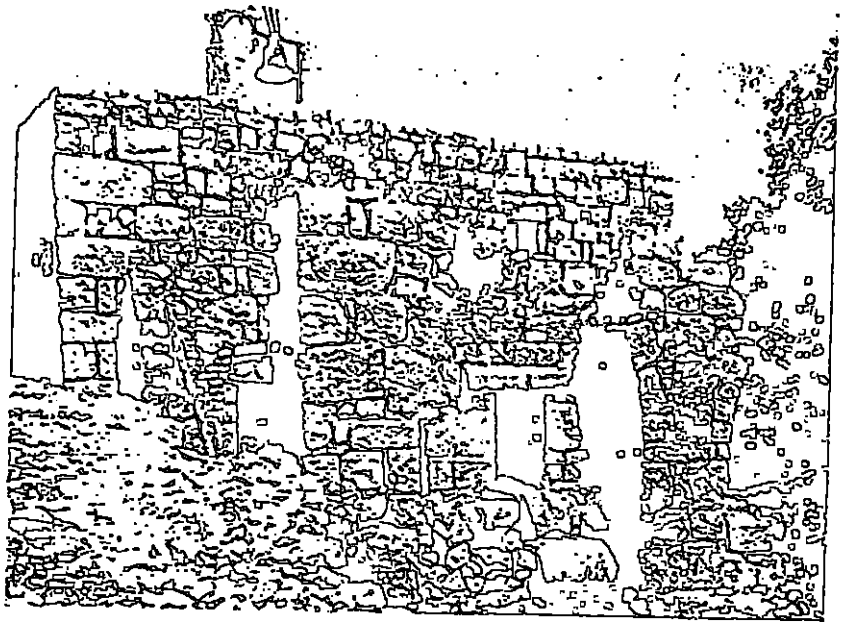

الرسم ١ – كنيسة شامات

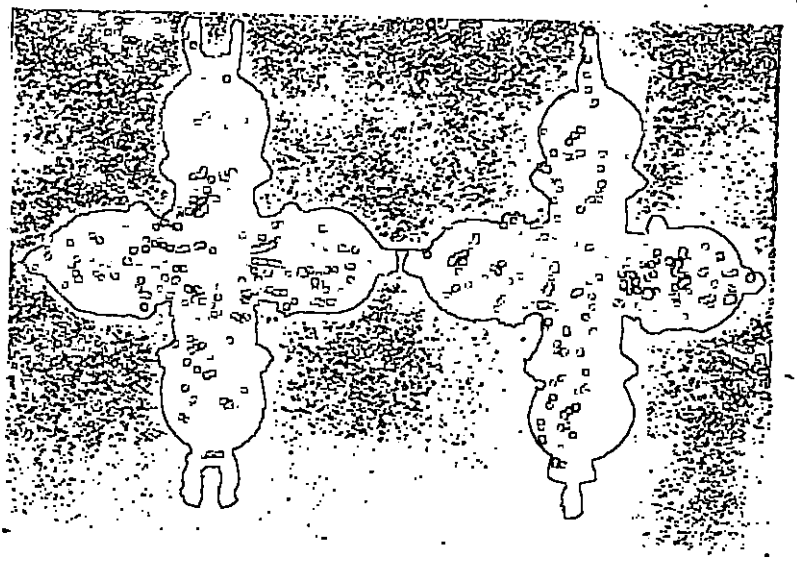

الرسم ٢ – الصليب المكتشف في كنيسة شامات

الرسم ٣ – فيضاء كتبة للمات

وعادة رصف الاماكن المختارة بالفسيفساء عادة بيزنطية قديمة . واجمل ما اكتشف منها فسيفساء الجامع الاموي في الشام ، وفسيفساء كنيسة مأدبا في شرقي الاردن التي ترسم البلاد الفلسطينية بما فيها من قصور وقلاع وبحور وانهر وطرقات واشجار بمختلف الالوان اجمل رسم لم ترَ العين ادقّ منه ولا احكم صنعة .

اما آثار الهيكل الوثني الباقية الى الآن فهي الاعمدة ذات الاطناف من الطرز اليوني والدوري داخل الكنيسة وخارجاً عنها ، ومساند ابواب ادخلت في الجدار وبعض قطع من الاساسات .

وفي كتابة قديمة على هامش احد الكتب البيعية ، الذي وُجد في هذه الكنيسة ، ان البطريرك دانيال قد كرّس الكنيسة ، وحفر رسم صليب على احد الحجارة في الحائط القبلي تذكاراً لتكريسها . وقد عثر العملة على رسم هذا الصليب بينما كانوا يكشطون عن وجه الحائط المذكور لتجديد تشييده اي طلائه بالشيد .

ويخيّل لي ان الاقدمين اتخذوا هذه الكنيسة معقلاً تحصّنوا فيه في زمن الثورات والحروب ، لمناعة موقعها واشرافه على ما حواليه . لانه اتى على المسيحيين زمن اضطروا فيه ان يتخذوا امثال هذه الكنائس حصناً لكثافة جدرانها ومتانة بنيانها . وليس بدعاً اذا كان الاهلون يدعونها كنيسة الحصن ، كغيرها من الكنائس في الاماكن المرتفعة على رؤوس التلال والآكام التي تصلح للتحصن فيها والدفاع ، ككنيسة الحصن في اعالي اللقلوق ، وكنيسة الحصن في اهدن ، وكنيسة الحصن في جبل ترتج ، وكنيسة الحصن في بشمله ، وكنيسة الوردية في ذوق مصبح .

ومن مميزات كنيسة شامات قبو آخر فوق عقد الكنيسة بسقفه لايواء اللاجئين اليه . وقد اشار الى ذلك الاب لامنس في تأليفه تسريح الابصار قال : ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج . وفي اماكن عديدة ترى الصهاريج خارج الكنيسة . ونوافذ ضيقة مستطيلة في جدرانها بقرب مدخلها . ويستدل بهذه الآثار الهندسية على ان الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصنون

في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعة لكثافة جدرانها ، فيشربون من مائها ويرمون القذائف من نوافذها [1] .

اما ما يرى من الآبار حول الكنيسة فقد اعتاد الاقدمون منذ ما انتشرت النصرانية ان يبنوا الكنائس ويجروا امامها منابع الماء اويحفروا الآبار ليستحم بها الداخلون . وقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يغسلوا انامليهم طلباً للطهارة وتوقيراً للاسرار [2] .

وقصارى القول ان كنيسة شامات بهيئتها الحاضرة ، تقدم لنا مثالاً على هندسة الكنائس المسيحية القديمة بجنيتها وسوقيها ورواقها . وامور اخرى لا يساعدنا ضيق المقام على التكلم عنها . بل يحسن بنا ان نختم المقال بذكر الاصلاحات التي اتاها سيادة المطران بولس عقل خارج الكنيسة وداخلها .

---

١) جزء ١ ، ص ٩٠

ومن اجمل ما شاهدتُ من الكنائس القديمة على الطرز الذي ذكره العلّامة لامنس كنيسة السيدة العذراء في طرطوس .

زرتُ هذه المدينة الفينيقية في ٤ آب من هذه السنة وتفقدتُ ما فيها من الآثار كقاعة فرسان الهيكل التي اتخذها المسلمون جامعاً ومكتباً لابناء ملّتهم ، وقلعتها القديمة التي يقال انها من بنايا ابنية الفينيقيين ، وخصوصاً كنيستها الجميلة ، القويّة البناء ، المتينة المتدة من الطرز القوطي والروماني التي تملأ العين اهابةً لفخامة منظرها وجمال هندستها .

شاد الصليبيون هذه الكنيسة في القرن الثاني عشر ، وفي سنة ١١٨٨ خرّجها صلاح الدين الايوبي اذى استيلائه على طرطوس . وفي سنة ١٢٠٢ قضت على ما بقي منها الزلازل . وفي سنة ١٢١٢ جدّدها الصليبيون . وفي سنة ١٢١٩ قتل الاسماعيليون في داخلها امير انطاكية . اما حجارتها وحجارة السور والقلعة فهي من آثار الفينيقيين .

في داخل الكنيسة سرداب واسع اكتشفه الاثري انلار (Enlart) الذي تفرّد في درس آثار القرون الوسطى ولا سيما الاثار الصليبية الدينية . قضى انلار مدةً في طرطوس درس في اثنائها خواص كنيستها المذكورة . فاخذ رسومها واكتشف عدّة كتابات استدلّ بها على تواريخها .

تشبه هذه الكنيسة في ابراجها وعلامات الحصار فيها التي يصعد اليها بدرج لولبي كنيسة سيدة الوردية في ذوق مصبح التي مرّ ذكرها . واما الصهريج فهو في داخلها كما تشهد على ذلك انابيب الماء العمودية داخل حنايا الاعمدة لجهة الشمال . وقيل ان في داخلها نفقاً يتصل حتى البحر .

٢) منارة الاقداس جزء ١ ، ص ٥٧

اولاً جعل للكنيسة ساحات متسعة ممهدة مرصوفة بجهاتها الاربع غايةً الطواف حواليها بالقربان المقدس واقامة الحفلات الدينية . وللجلوس على مقاعد اعدّت خصيصاً ، تحت ظل شجرة سنديان قديمة الايام ، لانتظار اوقات الصلوة .

ثانياً شاد للاهلين مدافن تحت ساحة الكنيسة القبلية محكمة البناء ذات ابواب حديديّة . واما مدافن هذه المدافن طريق متسعة مرصوفة على طول حجر المدافن ليسهل المرور فيها .

ثالثاً يعنى الآن بغرس الاشجار في اطراف الساحات حوالي الكنيسة وعلى جوانب الطرقات للتنزّه تحت ظلّها ولتحسين المناخ ولازديان بيت الله بما امكن من التحسينات الخارجية .

رابعاً يهتم الآن بايصال طريق السيارات الى الكنيسة من خط الطريق العامة . اما من الداخل فلم تدع يد الاصلاح شيئاً لم تحسّنه . فقد هدم المذبح القديم الذي كان مركباً من مجتمع احجار دون نظام وترتيب . وبنى مذبحاً بموجب تقرير الآباء القديسين ومنارة الاقداس ، اي مائدة من حجر طويلة قليلة العرض قائمة على اربعة اعمدة يمكن ان يدار حولها كما نصت على ذلك المنارة المذكورة : يصنع المذبح مربّعاً لانه مائدة ويمتدّ في الطول بين الشمال والجنوب اكثر من امتداده في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وحقّ البخور [1]

وقد ورد في كتاب التكريسات الذي عني بنشره المرحوم رشيد الخوري الشرتوني : يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاته وحوله تصير الزياحات والرتب المرسومة من الآباء . ولاجل ذلك امروا باقامة الحنية حوله من جهة الشرق حتى لا يضايقه الحائط بتقدمه [2] . قديماً كان الاساقفة يجلسون وراء المذبح ووجوههم نحو الشعب وظهورهم نحو الحنية ولم يكن للمذبح قبة او درج بل كان على شكل مائدة كما قال الدويهي [3] وقوله ايضاً في منارة

١) منارة الاقداس للدويهي ١٤٤
٢) كتاب التكريسات ص ١٩
٣) منارة الاقداس ص ١٢٨

الاقداس : وهكذا كان آباؤنا المتقدمون ينصبون لهم مذابح من الخشب خشيةً من الكفرة ، الذين كانوا يشددون عليهم الاضطهاد ، ولا يمكنونهم ان يستقروا في موضع واحد بل كانوا يطردونهم من مكان الى آخر . وحتى الآن لم يزل المذبح الذي كان يقدس عليه القديس بطرس محفوظاً في رومية وهو على مثال القرّاءة . ولما انعقد مجمع نيقية رسم الآباء ان يصنع المذبح من حجر كما كان قبر المخلص للدلالة على استمرار هذه الذبيحة الى نهاية الزمان .

اما سقف الكنيسة وجدرانها فقد طليت بالشيد بعد كشط القديم عنها ، وارضها بُلطت بالحجر الابيض . وحُفر في داخلها مدفنٌ لجهة الشمال للحسنة الذكر سعدى عقل التي كانت اوصت ولدها سيادة المطران بولس عقل ، وشريك حياتها حضرة الاب الفاضل الخوري طانيوس عقل ، وباقي اولادها قبل وفاتها بان يعتنوا باسر الكنيسة ويرمّموها ويكفوها ما تحتاج اليه من ادوات واوانٍ وحلل بيعية . وقد اجاب سيادة ولدها وغائب واماني والدته بما اجراه من الاصلاحات داخل الكنيسة وخارجاً عنها كما تقدم القول ، وبما جلبه لها من الادوات الفضية والآنية الكنسية ، والحلل البيعية ، مما جعلها تفاخر اغنى كنائس هذه الجهات . وقد زيّن جدرانها باجمل الصور من رسم اشهر المصورين كصورة السيد المسيح عمل المصوّر الشهير ليونردو دي فنشي .

وقد نصب في هذه الكنيسة مذبحين آخرين لفت اتقانهما النظر : مذبح سيدة لورد في الجهة اليمنى . ومذبح القديسة ترازية الطفل يسوع في الجهة اليسرى . وقد جلب لها جرساً كبيراً ركزه على عمودين ضخمين مما اكتشفه العملة في الحفر وحرصاً على قدم الرواق امام الكنيسة قد شاء سيادته ان يتدارك ما تداعى للسقوط من جدرانه باستعمال الترابة الفرنجية بطريقة فنية تضمن ثباته .

وقصارى الكلام قد اصبح هذا المحل من اجمل المزارات الدينية في هذه الجهات وافضل المتنزهات لفخامة موقعه واتساع ساحاته يؤمه اهل الجوار على اختلاف طبقاتهم .